

## السياق وتأويل النصوص نموذج من النصّ القرآني

■ محمد شتوان

إن كل معنّي بالبحث في الدلالة وتقصّي صحيح المعاني لا شك أنه يعرف للسياق قدره وأهميته البالغة - والحاسمة في كثير من الأحيان - في تذليل العقبات والصعاب أمام الوصول إلى صواب المعنى وصحيحه. هذه الأهمية نجد لعلماء الإسلام - بمختلف «تخصصاتهم» - وعي مبكر بها، يقول تمام حسان: «لقد كان علماء الأمة الإسلامية عند اعترافهم بفكرة السياق - بشقيه المقالي والمقامي - متقدمين بأكثر من ألف سنة على زمانهم»<sup>1</sup>.

أما علماء اللغة الغربيون فإنهم - وإن كان اهتمامهم بالسياق قد بدأ متأخراً - وقد احتفلوا به واهتموا به أيما اهتمام، إلى درجة صياغة نظرية متكاملة تُعنى به، عرفت بالنظرية السياقية.

- فما هو مفهوم السياق في الفكر اللغوي العربي، وما أنواعه؟ وكيف يؤدي وظيفته؟

1 - اللغة العربية معناها ومبناها، تمام حسان، (الدار البيضاء، دار الثقافة، 1421هـ/2001م)، ص 337.

■ باحث وأكاديمي في كلية الآداب، ظهر المهراز، فاس، المغرب.



- وما مفهوم السياق في الفكر الغربي، وكيف يؤدي وظيفته؟
- عرض أنموذج تطبيقي.

## I - مفهوم السياق

### 1 - تعريف السياق في اللغة

جرت عادة الباحثين إذا ما أرادوا البحث عن معنى لفظ ما أن يفرعوا إلى أمّات المعاجم اللغوية والاصطلاحية التي كانت ولا تزال المرجع في معرفة معاني الألفاظ العربية ودلالات استعمالها.

ومن أجل تحديد المعنى المعجمي للفظة «السياق» نعرّج على أهم تلك المعاجم، ونبدأ بمقاييس ابن فارس (395هـ) الذي عُرف عنه اهتمامه بالمأخذ الحسّي للمصطلح، والمدار الذي يدور عليه. قال: «السين والواو والقاف أصل واحد، وهو حذو الشيء، يقال: ساقه يسوقه سوقاً، والسَيْقَةُ: ما استيق من الدواب، ويقال: سُقْتُ إلى امرأتي صداقها وأَسَقْتُه، والسُّوقُ مشتقة من هذا؛ لما يساق إليها من كل شيء، والجمع أسواق، والساق للإنسان وغيره، والجمع سوق، وإنما سميت بذلك؛ لأن الماشي ينساق عليها»<sup>1</sup>.

أما لسان ابن منظور (ت: 711هـ) وهو المعجم الذي ينتظم أكثر المعاجم التي سبقته ويحوي موادها الزاخرة، فلم يضيف الكثير على ابن فارس؛ قال: «تقول العرب: ساق الإبل سوقاً وسياًقاً إذا سردها سرداً وأوردها مكاناً، قال تعالى: ﴿وَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ [مريم: 86] وتقول العرب: تساوقت الماشية، إذا تابعت في السير، وولدت المرأة ثلاثة ذكور سياًقاً إذا ولدتهم واحداً بعد آخر ليس بينهم أنثى»<sup>2</sup>.

ويجمع المعجم الوسيط هذه المعاني بقوله: «ساق الحديث: سرده وسلسله... تساوقت الماشية ونحوها: تابعت وتزاحمت في السير... والشيطان:

1- مقاييس اللغة لابن فارس.

2- لسان العرب لابن منظور، ج 10، ص 166 - 167.

تسايرا أو تقارنا... ويقال: بنى القوم بيوتهم على ساق واحدة: على صف واحد... وسياق الكلام: تتابعه وأسلوبه الذي يجري عليه»<sup>1</sup>.

يتبين من خلال المعاني اللغوية التي أوردها أصحاب المعاجم السابقة لمادة السياق أنها تدور حول معاني التسلسل والإيراد ومجيء الشيء متتابعاً وفي كل ذلك يبرز معنى الانتظام والترابط.

## 2 - مفهوم السياق عند القدامى

**إنَّ مصطلح السياق من المصطلحات العصية على التحديد الدقيق، والتعريف الجامع للأفراد المانع للأغيار، على الرغم من تداوله ودورانه على الألسنة.**

لقد تقاسمت علوم كثيرة الاهتمام بالسياق واعتماده في عملية الفهم والتحليل، وتوظيفه في البيان والإرشاد إلى المعنى القويم، ولعل أول وأبرز من اشتغل بالسياق كان علماء التفسير والأصول، ثم جاء من بعدهم علماء اللغة والبلاغة، ومع ذلك لا نجد عند هؤلاء تعريفاً واضحاً ومحدداً لهذا المصطلح، باستثناء إشارات متناثرة هنا وهناك، وكذلك الشأن في كتب الاصطلاح<sup>2</sup>، إذ لا نجد لهذا المصطلح ذكر

فيها، إلا أننا لا نعدم مع ذلك إشارات لهذا المصطلح في تراثنا التفسيري واللغوي، وإن بمسميات أخرى من قبيل: القرينة، والدليل، والمقام، ومقتضى الحال، وغيرها.

إن مصطلح السياق من المصطلحات العصية على التحديد الدقيق، والتعريف الجامع للأفراد المانع للأغيار، على الرغم من تداوله ودورانه على الألسنة؛ وذلك لأن «المصطلح العلمي قد يشيع بين الدارسين إلى درجة الابتذال، فيتوهم بعضهم أن هذا المصطلح واضح مفهوم، فإذا ما حاولوا تحديد المعنى الذي ظنوا أنهم يفهمونه بدا الأمر عسيراً غاية العسرة وغامضاً

1- المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، ط4، مكتبة الشروق الدولية، مصر، 1425هـ/2004م.

2- انظر: التعريفات للجرجاني، والكليات لأبي البقاء الكفوي، ومفاتيح العلوم للخوارزمي.



أشد الغموض، ومن تلك المصطلحات اللغوية الشائعة الاستعمال، العصية على التحديد الدقيق، بشكلٍ متفق عليه بين الدارسين مصطلح الكلمة، ومصطلح الجملة، ومصطلح السياق الذي نحن بشأن تحديده»<sup>1</sup>.

وتظهر هذه الصعوبة في الالتباس الحاصل في عبارات القدامى - وكذا المحدثين - إذا ما أرادوا استعمال هذا المصطلح أو الإشارة إليه. فالمتتبع لمصطلح السياق في عبارات القدامى يجد أن هذا يستعمله بمعنى معين، وذاك يستعمله بمعنى ثان، قد يقترب أو يبتعد عن الأول، وهكذا. وقد تتبع الدكتور «ردة الله الطلحي» استعمال هذا المصطلح في التراث العربي فوجد أن مفهوم السياق في التراث يمكن حصره في النقاط الثلاث التالية:

**الأولى:** أن السياق هو الغرض؛ أي مقصود المتكلم من إيراد الكلام، وهو واحد من المفاهيم التي عبر بلفظ السياق (السوق) عنها.

**الثانية:** أن السياق هو الظروف والمواقف والأحداث التي ورد فيها النص أو نزل أو قيل بشأنها، وأوضح ما عبّر به عن هذا المفهوم لفظا الحال والمقام.

**الثالثة:** أن السياق هو ما يعرف الآن بالسياق اللغوي الذي يمثله الكلام في موضع النظر أو التحليل.<sup>2</sup>

### 3 - مفهوم السياق عند المحدثين

إن الناظر في مجموعة من كتابات المحدثين ودراساتهم حول السياق يخرج بانطباع تتأكد له فيه الصعوبة التي ذكرها بعضهم عن تعريف هذا المصطلح، ولا أدلُّ على ذلك من عدم اتفاقهم على معنى جامع وتصور موحد لهذا المصطلح، وعموماً يمكن تقسيم الآراء التي تكونت بشأن تعريف هذا المصطلح إلى ثلاثة اتجاهات:

1- البحث الدلالي عند الأصوليين، محمد يوسف حبلص، ط1، مكتبة عالم الكتب، 1991، ص28.

2- دلالة السياق، ردة الله بن ردة بن ضيف الله الطلحي، ط1، مكة المكرمة، جامعة أم القرى، معهد البحوث العلمية، 1424هـ.

**الاتجاه الأول:** ويمكن عدّه مذهب جمهور الدارسين، والاتجاه السائد في معظم الدراسات الدلالية العربية؛ فالسياق عند أصحاب هذا الاتجاه شامل لما يسمى بالسياق المقالي والمقامي. وإليك نماذج من أقوالهم في ذلك:

1- يقول تمام حسان: «هو ما انتظم القرائن الدالة على المقصود من الخطاب سواء كانت القرائن مقالية أو حالية»<sup>1</sup>.

2- ويقول فريد عوض حيدر: «علاقة لغوية أو خارج نطاق اللغة يظهر فيها الحدث الكلامي»<sup>2</sup>.

3- يقول إدريس حمادي: «كافة القرائن التي تسهم في عملية الفهم لغوية كانت أم غير لغوية»<sup>3</sup>.

### إنَّ المتتبع لمصطلح

السياق في عبارات

القدامي يجد أن هذا

يستعمله بمعنى معين،

وذاك يستعمله بمعنى

ثانٍ، قد يقترب أو يبتعد

عن الأول، وهكذا.

**الاتجاه الثاني:** ويذهب أصحابه إلى التفرقة بين مفهوم السياق ومفهوم المقام، ويجعلون كلاً منهما مختصاً بمعنى مغاير، فيطلقون لفظ السياق على المعنى المقالي؛ أي الكلمات والعبارات التي تجاور كلمة أو عبارة ما داخل النص، ويستعملون المقام للدلالة على الظروف والملابسات الخارجية التي تسهم في إزالة الغموض عن كلمة أو عبارة ما.

**الاتجاه الثالث:** وقد قال به الدكتور «إسماعيل الحسني»، الذي يجعل المقام أعم من السياق المقالي؛ أي أنه يقسم المقام إلى مقام المقال ومقام

1- البيان في روائع القرآن، للدكتور: تمام حسان، ط2، القاهرة، عالم الكتب، 1420هـ/2000م، ج1، ص221.

2- علم الدلالة، دراسة نظرية وتطبيقية، فريد عوض حيدر، ط2، مكتبة النهضة المصرية، 1419هـ/1999م، ص157.

3- الخطاب الشرعي وطرق استثماره، إدريس حمادي، ط1، المركز الثقافي العربي، 1994، ص146.



الحال، بدلاً من تقسيم السياق إلى السياق المقالي والسياق المقامي، فهو قد جمع النوعين تحت مصطلح المقام وعرفه قائلاً: «المقام عندي هو جملة من العناصر اللغوية الصادرة عن الشارع والشروط الخارجية المحددة لحالات استعمال الخطاب، والتي تسهم كلها في ضبط المعنى المقصود من الخطاب الشرعي»<sup>1</sup>.

هذه أهم الاتجاهات الحديثة في التعريف بالسياق، والملاحظ أنها تختلف فقط في زاوية النظر إلى السياق بوصفه مصطلحاً شاملاً للقرائن المقامية والمقالية، أو مقتصرأً على القرائن المقالية المقترنة باللفظ، أو مندرجاً تحت المقام. ومن مجموع هذه الأقوال يمكن القول: إن السياق هو: جملة القرائن الداخلية والخارجية التي تكتنف النص أو الحدث الكلامي، مكسبة إياه دلالات جديدة لم يكن ليحملها لولاها.

## II - أنواع السياق

انتهينا في المبحث الأول من تعريف السياق، ومن خلاله يبدو أن أغلب الدارسين يشيرون إلى نوعين من السياق، هما السياق اللغوي والسياق الحالي، وهو التقسيم الذي استقر عليه الدرس اللغوي العربي - والبلاغي منه على وجه الخصوص - فيما يعرف بفكرة المقال والمقام. إلا أنه قد وجدت هناك تقسيمات أخرى للسياق اقترحتها مجموعة من الباحثين، من ذلك ما اقترحه k. ammer (ك. أمير) من تقسيم السياق إلى أقسام أربعة: السياق اللغوي، والسياق العاطفي، وسياق الموقف، والسياق الثقافي<sup>2</sup>.

1 - السياق اللغوي Linguistic Context: «هو البيئة اللغوية التي تحيط بصوت أو فونيم أو مورفيم أو كلمة أو عبارة أو جملة»<sup>3</sup>.

1- المقام والإفادة من الخطاب الشرعي، إسماعيل الحسني. مجلة الإحياء، العدد 25، جمادى

الثانية 1428هـ / يوليو 2007م، ص 86.

2- علم الدلالة، أحمد مختار عمر، ط5، القاهرة، عالم الكتب، 1998، ص 68 - 69.

3- معجم علم اللغة النظري، محمد علي الخولي، ط1، بيروت، مكتبة لبنان، 1982، ص 156.

2 - **السياق العاطفي Emotional Context**: هو «السياق الذي يتولى الكشف عن المعنى الوجداني Emotive Meaning، والذي قد يختلف من شخص إلى آخر»<sup>1</sup>.

ويوضح أحمد مختار عمر دور هذا السياق في كونه: «يحدد درجة القوة والضعف في انفعال المتكلم مما يقتضي تأكيداً أو مبالغة أو اعتدالاً، فكلمة (يكره) غير كلمة (يبغض)، رغم اشتراكهما في أصل المعنى، وكلمة (يود) هي غير كلمة (يحب)»<sup>2</sup>.

3 - **سياق الموقف Context of Situation**: ويعرف بأنه الموقف الخارجي

عرّف د. إسماعيل الحسني  
المقام قائلًا: «المقام عندي  
هو جملة من العناصر اللغوية  
الصادرة عن الشارع والشروط  
الخارجية المحددة لحالات  
استعمال الخطاب، والتي تسهم  
كلها في ضبط المعنى المقصود  
من الخطاب الشرعي».

الذي جرى فيه التفاهم بين شخصين أو أكثر، ويشمل ذلك زمن المحادثة ومكانها، والعلاقة بين المتحادثين، والقيم المشتركة بينهم والكلام السابق للمحادثة<sup>3</sup>. ويختصره بعضهم بقوله: «هو الظروف الخارجية المحيطة بالحدث اللغوي»<sup>4</sup>.

4 - **السياق الثقافي Cultural Context**: «وهو

السياق الذي يكشف عن المعنى الاجتماعي (Social Meaning) وذلك المعنى الذي توجي به الكلمة أو الجملة، والمرتبطة بحضارة معينة أو

مجتمع معين ويدعى أيضاً المعنى الثقافي»<sup>5</sup>. فكل ثقافة تتميز بخصائص لا تتوفر في ثقافة مجتمع آخر، ومن ثم قد تختلف دلالة الكلمات من بيئة إلى أخرى، «فمثلاً كلمة الجذر تستخدم عند اللغويين بمعنى، وعند الزراع بمعنى غيره، وعند علماء الرياضيات بمعنى آخر»<sup>6</sup>، لذلك وجب مراعاة هذا الجانب

1- المصدر نفسه ص 84.

2- علم الدلالة، أحمد مختار عمر، ص 70-71.

3- معجم علم اللغة النظري، ص 84

4- الدلالة والتركيب، محمد أحمد خضير، القاهرة، دار الزهراء للنشر، 1414هـ/1993م، ص 124.

5- معجم علم اللغة النظري: 261.

6- علم الدلالة، فريد عوض حيدر، ص 162.



عند تحديد معاني الألفاظ والعبارات، فقولته تعالى: ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ مَّجْمُوعٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيْلَةٍ وَلَا حَامٍ ﴾ [المائدة: 103] لا يمكن تفسيره إلا إذا عرفنا ثقافة المجتمع الجاهلي وعاداته<sup>1</sup>.

وهناك أيضاً تقسيم آخر للسياق منسوب «للأسلوبين»؛ ذلك أنهم يقسمونه إلى نوعين:

**الأول:** «السياق الصغير» (micro context) ويقصد به الجوار المباشر للفظ قبله أو بعده».

**والآخر:** «السياق الكبير» (macro context) ويقصد به ما هو أكبر من الجوار المباشر للفظ كالجمله أو الفقرة أو الخطاب جمله، وقد يتخذ هذا المصطلح أسلوبياً دلالة خاصة تتمثل في جمله المعطيات التي تحضر القارئ، وهو يتلقى النصّ بموجب مخزونه الثقافي والاجتماعي<sup>2</sup>.

ويبرز «د. مسعود صحراوي» هذين النوعين من أنواع السياق في النصّ القرآني بقوله: «والسياق الأصغر محدود ضمن وحدات دلالية أو تركيبية معينة كالأية القرآنية مثلاً، أو ما يسبق الآية وما يلحقها من الكلمات أو الآيات، بينما الثاني: (السياق الأكبر) شامل لما بين دفتي المصحف لا تحده الآيات والسور والأجزاء»<sup>3</sup>.

ويذهب أحد الباحثين المعاصرين، وهو الدكتور «عبد الرحمن بودرع»، إلى تقسيم آخر للسياق، أوصله إلى ستة أنواع، وهي:

**1- السياق المكاني:** ويعني سياق الآية داخل السورة وموقعها بين السابق من الآيات واللاحق؛ أي مراعاة سياق الآية في موقعها من السورة، وسياق الجملة في موقعها من الآية.

1- الدلالة والتركيب، ص 124.

2- دلالة السياق، نقلاً عن الأسلوبية والأسلوب: عبد السلام المسدي، ص 175

3- المنهج السياقي ودوره في فهم النص وتحديد دلالات الألفاظ، مسعود صحراوي، مقالة منشورة على موقع الشهاب الإلكتروني: (www.chihab.net).



- 2- **السياق الزمني للآيات:** أو سياق التنزيل، ويعني سياق الآية بين الآيات بحسب ترتيب النزول.
- 3- **السياق الموضوعي:** ومعناه دراسة الآية أو الآيات التي يجمعها موضوع واحد.
- 4- **السياق المقاصدي:** ومعناه النظر إلى الآية القرآنية من خلال مقاصد القرآن الكريم والرؤية القرآنية العامة للموضوع المعالج.
- 5- **السياق التاريخي، بمعنييه:** العام وهو سياق الأحداث التاريخية القديمة التي حكاها القرآن الكريم، والمعاصرة لزمن التنزيل، والخاص وهو أسباب النزول.
- 6- **السياق اللغوي:** وهو دراسة النص القرآني من خلال علاقة ألفاظه بعضها ببعض والأدوات المستعملة للربط بين هذه الألفاظ، وما يترتب عن تلك العلائق من دلالات جزئية وكلية<sup>1</sup>.

**السياق المكاني: ويعني سياق الآية داخل السورة وموقعها بين السابق من الآيات واللاحق؛ أي مراعاة سياق الآية في موقعها من السورة، وسياق الجملة في موقعها من الآية.**

### تعقيب:

إن الناظر في هذه التقسيمات والتفريعات، سواء ما تعلق منها بمطلق النصوص، أو التي تتعلق بالنص القرآني؛ ليلحظ فيها نوعاً من التكلف لا حاجة لنا به؛ وذلك لأن معظم هذه التفريعات تؤول في نهاية الأمر إلى نوعين اثنين، هما: «السياق اللغوي» و«السياق الحالي»، أو «السياق المقالي» و«السياق المقامي»، فالأول يبنّي على مراعاة الجانب النصّي بمستوياته المعروفة: المستوى الصوتي، والمعجمي، والصرفي... والثاني يقوم على مراعاة الظروف والملابسات الخارجية ومنها: الزمان، والمكان، والأشخاص، وجميع الظروف والملابسات الخارجية التي من شأنها أن تسهم في إضاءة الجوانب المظلمة من النصّ.

1- منهج السياق في فهم النصّ، عبد الرحمن بودرع، سلسلة كتاب الأمة العدد: III، محرم 1427هـ، ص 30.



ومن ثم، فإن التقسيم الرباعي للسياق الذي اقترحه (K. Ammer)، ك. أمير) لا ضرورة له؛ إذ إن انفعالات المتكلم أو المستمع، وكذا الظروف الاجتماعية والثقافية... المندرجة تحت ما أسماه بسياق الموقف، والسياق العاطفي والسياق الثقافي، يتناولها جميعها السياق المقامي أو سياق الحال. الملاحظة نفسها تقال عن تقسيم الدكتور بودرع؛ فالسياق المكاني، والموضوعي، يمكن إدراجه ضمن السياق اللغوي، والسياق الزمني والتاريخي والمقاصدي يدرج ضمن سياق الحال. وبذلك يمكن أن نتفادى كثرة التقسيمات والتفريعات التي لا طائل من ورائها.

### III - السياق في الفكر اللغوي الغربي

لقد شكلت دراسة النصوص - خاصة النصوص الدينية والقانونية؛ بهدف تحصيل المعنى والوقوف على الصحيح والتمتين منه - قبة الدارسين قديماً وحديثاً، ومن أجل ذلك تراهم قد وظفوا علوماً شتى ومناهج مختلفة تتناسب وطبيعة كل نص محاولين تلمس أحسن الطرق وأقرب المسالك لإدراك المعنى. ونتيجة للتطور الذي شهده الحقل اللغوي الغربي في الآونة الأخيرة فقد تناسلت مجموعة من النظريات تهتم بدراسة المعنى واستجلائه ومن بينها: «النظرية الإشارية»<sup>1</sup>، و«النظرية التصويرية»<sup>2</sup>، و«النظرية السلوكية»<sup>3</sup>،

- 1- وتعني هذه النظرية: أن معنى الكلمة هو إشارتها إلى شيء غير نفسها. وهنا يوجد رأيان: أ) - رأي يرى أن معنى الكلمة هو ما تشير إليه. ب) - رأي يرى أن معناها هو العلاقة بين التعبير وما يشير إليه. كان «أوجدن وريتشاردز» في كتابهما المشهور: The Meaning of Meaning أول من طور هذه النظرية. [انظر: علم الدلالة، أحمد مختار عمر، ص 54-55].
- 2- وهي نظرية تركز على الأفكار أو التصورات الموجودة في عقول المتكلمين والسامعين بقصد تحديد معنى الكلمة، أو ما يعنيه المتكلم بكلمة استعمالها في مناسبة معينة، سواء اعتبرنا معنى الكلمة هو الفكرة أو الصورة الذهنية، أو اعتبرناه العلاقة بين الرمز والفكرة. [انظر: علم الدلالة، أحمد مختار عمر، ص 58].
- 3- وترتكز هذه النظرية على ما يستلزمه استعمال اللغة (في الاتصال)، وتعطي اهتمامها للجانب الممكن ملاحظته علانية. وهي بهذا تخالف النظرية التصويرية التي تركز على الفكرة أو التصور. [انظر: علم الدلالة، احمد مختار عمر، ص 59].

و«نظرية الحقول الدلالية»<sup>1</sup>، و«نظرية السياق»... وغيرها، وكلها نظريات ومناهج جديدة تجعل من المعنى قطب رحاها ومحور اهتمامها.

أما فيما يخص نظرية السياق التي نحن بشأن الحديث عنها فتعدّ عند كثير من الدارسين الإسهام الحقيقي للغويين الإنجليز في حقل النظريات اللغوية، إلى جانب نظرائهم الأوروبيين والأمريكيين، «فقد ظلت المدرسة اللغوية في بريطانيا رداً من الزمن لا تهتم سوى بالجوانب التحليلية للغة دون وضع نظريات لغوية، ولكن بحلول عام (1944) شاركت بريطانيا لأول مرة في وضع نظرية لغوية على يد «فيرث» الذي كان يعرف أن اهتمام علماء اللغة في بريطانيا لا يعدو وضع المعاجم والدراسات الصوتية واللهجية»<sup>2</sup>.

**ظلت المدرسة اللغوية في بريطانيا رداً من الزمن لا تهتم سوى بالجوانب التحليلية للغة دون وضع نظريات لغوية، ولكن بحلول عام (1944) شاركت بريطانيا لأول مرة في وضع نظرية لغوية على يد «فيرث».**

وقد كتب لهذه النظرية الذبوع والانتشار في الأوساط اللغوية الغربية على يد تلامذة فيرث - وغيرهم - الذين أصلوا ونظروا واستكملوا ما بدأه فيرث، كما كان لهذه النظرية تأثير واضح على الفكر اللغوي العربي الحديث، إذ تتلمذ على يد فيرث عدد من علماء اللغة العربية في مصر من بينهم: «محمود السعران، إبراهيم أنيس، كمال بشر، عبد الرحمن أيوب، تمام حسّان، محمد أحمد أبو الفرج»<sup>3</sup>.

وإذا كانت هذه النظرية قد نسبت إلى فيرث، فإنها بلا شك كانت لها إرهاصات بشرت بمقدمها، وجذور عند من سبق من علماء شاركوا - بشكل أو بآخر - في بلورتها وصياغة أفكارها، إلى أن وصلت إلى مرحلة النضج والاكتمال على يديه.

1- الحقل الدلالي Semantic Field هو مجموعة من الكلمات ترتبط دلالاتها، وتوضع عادة تحت لفظ عام يجمعها. مثال ذلك كلمات الألوان في اللغة العربية. فهي تقع تحت المصطلح العام «لون» وتضم ألفاظاً مثل: أحمر - أزرق - أصفر - ... [علم الدلالة، أحمد مختار، ص 79].

2- دراسات في اللسانيات التطبيقية، حلمي خليل، دار المعرفة الجامعية، 1420هـ/2000م، ص 30-31.

3- المرجع نفسه: 30



ويبقى أنه من نافلة القول الإشارة إلى أن فكرة السياق عندما تناولها الغربيون في القرن العشرين، لم تكن جديدة بالمرّة، بل سبق إليها العلماء العرب، ومن قبلهم أيضاً العلماء الهنود، «بل إن فكرة السياق ودلالته على المعاني الحقيقية للكلام كانت مطروحة في الفكر الإنساني منذ أفلاطون وأرسطو... إلا أن الفضل في إعادة الحياة إلى هذه الفكرة يعود إلى فيرث الذي صاغ منها نظرية علمية قد تلتقي في بعض جوانبها مع آراء القدماء، ولكنها بلا شك تختلف من حيث المنهج والتطبيق والتحليل»<sup>1</sup>.

ومن العلماء الذين بصموا نظرية السياق بأفكارهم، وكان لهم تأثير واضح على فيرث، نجد العالم البولندي «برونسلا مالينوفسكي».

### 1 - مالينوفسكي والسياق

لقد كانت نقطة البداية في الاهتمام بالسياق عند مالينوفسكي، مشاكل واجهته وهو أمام ترجمة بعض النصوص لبعض القبائل البدائية؛ ذلك أن اهتمامه باللغة «نشأ عن عمله في جزر التروبرياند (Trobriand) جنوبي الباسفيك، وقد كان معنيّاً - على وجه الخصوص - بعجزه عن الوصول إلى أيّ ترجمات مرضية للنصوص التي سجلها، فقد سجل على سبيل المثال - فخرّاً (لصاحب الزورق - طويل خفيف ضيق يقاد بمجدف - Canoeist) وترجمه على النحو التالي: «نحن - نجري أمام - خشب أنفسنا... نحن نتحول نحن - نرى زملاء - نا هو - يجري ينصب - خشب»<sup>2</sup>. وللخروج من هذا الفشل في تقديم ترجمة مرضية لما سجّله، يزعم مالينوفسكي: «أنّ هذا الكلام المنطوق يكون له معنى فقط لو رأيناه في السياق الذي استخدم فيه، حيث سيكون واضحاً - على سبيل المثال - أنّ كلمة «خشب» تشير إلى مجداف الزورق»<sup>3</sup>.

1- الدلالة والتركيب، ص 120

2- علم الدلالة: إطار جديد، تأليف ف.ر. بالمر، ترجمة: صبري إبراهيم السيد، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، (1995).

3- نفسه: 74.

إن الصعوبات التي اعترضت مالمينوفا، وحالت دون فهم صحيح للغة سكان تلك القبائل - جعلته يدرك أن تلك النصوص تكون أدق وأوضح في ضوء السياق الذي قيلت وتقال فيه، فحاول من ثم ربطها بالمواقف التي قيلت فيها، وبنوع النشاط السكاني الذي يصاحب أو تصاحبه هذه التعبيرات، «فقد بنى مالمينوفا مزامعه في المقام الأول على ملاحظته للطريقة التي توافقت فيها لغة الناس التي كان يدرسها مع نشاطاتهم اليومية، وكانت من ثم جزءاً يتعذر فصله عنها»<sup>1</sup>.

**إن فكرة السياق عندما تناولها الغربيون في القرن العشرين، لم تكن جديدة بالمرّة، بل سبق إليها العلماء العرب، ومن قبلهم أيضاً العلماء الهنود.**

وقد وجد مالمينوفا في سياق الحال (Context of Situation) حلاً مناسباً لهذه الصعوبات التي واجهها. وقام بنشر هذه الآراء في مقاله «مشكلة المعنى في اللغات البدائية» الذي نشره كملحق لكتاب أوجدن وريتشاردز المعروف «معنى المعنى» The Meaning of Meaning والذي يؤيد فيه نظرية أوجدن وريتشاردز الخاصة بالاتصال، ويركز فيها على اللغة وسيلة للعمل لا مقابلاً للفكر<sup>2</sup>.

ورغم أن مالمينوفا لم يأت بنظرية لغوية متكاملة الأركان متينة البنيان، الأمر الذي يمكن عزوه إلى تخصصه غير اللغوي، إذ أفضت به دراساته للأجناس البشرية إلى اهتمامه العارض باللغة؛ فإنه مع ذلك خلف جملة من المقولات التي يمكن أن تشي بمجموعة من المبادئ الواضحة التي أثرت في الفكر اللغوي؛ حيث ذهب إلى «أن اللغة ليست مجرد أداة لتوصيل الأفكار، بل هي في المكان الأول جزء من نشاط اجتماعي متسق، وفي اللحظة التي تفصل فيها الكلمة عن سياق هذا النشاط الذي يغلفها، أو عن سياق الموقف الذي تستخدم فيه، تصبح كلمة جوفاء غير ذات مغزى؛ لأن الألفاظ لا يمكن أن توجد في فراغ»<sup>3</sup>.

1- المصدر نفسه: 75.

2- دلالة السياق، ردة الله الطلحي، ص 184.

3- المصدر نفسه، ص 185.



ويذهب في تقرير أهمية السياق الخارجي في أداء اللغة لوظيفتها إلى مدى أبعد حيث يقول: «إن اللغة في جوهرها متأصلة في حقيقة الثقافة ونظم الحياة عند كل جماعة، ولا يمكن إيضاح اللغة إلا بالرجوع الدائم إلى المحيط الأوسع، وهو الظروف التي يتم فيها النطق».<sup>1</sup>

لقد أسهم مالينوفسكي من خلال هذه المقولات في بلورة مفهوم جديد لمصطلح سياق الحال، يقول الدكتور محمود السعران: «واستعمل مالينوفسكي ذلك المصطلح Context of Situation (سياق الحال) [= الماخرجات] نعم إن الكلمة Context [= السياق] كانت متداولة بين اللغويين من قبله، ولا تزال متداولة بينهم، ولكن مالينوفسكي أضفى على الاصطلاح (سياق الحال) معنى خاصاً».<sup>2</sup>

وفي سياق بحث مالينوفسكي عن أنماط السلوك اللغوي الاجتماعي تراه يتحدث عن ما سماه «Phatic Communion» الذي ترجمه بعضهم بـ: «لغة المجاملات»<sup>3</sup> وترجمه آخرون بـ: «مقامات اللغو الاجتماعي»؛ وذلك لأن مالينوفسكي «لاحظ أن كثيراً من تفوهاتنا لا يقصد بها أساساً التفاهم أو البحث عن المعلومات، أو إصدار الأوامر أو التعبير عن الآمال والأمنيات والرغبات وإثارة العواطف... ولكن تستعمل لخلق شعور بالتفاهم الاجتماعي والمجاملة، فكثير من التفوهات المعدة أصلاً مثل (It's Another Beautiful Day) هذا يوم جميل آخر، حين يقال كبداية حديث بين المشتري وصاحب المحل، فمن الواضح أن هذا التفوه لا يقصد به أساساً نقل معلومات عن الطقس إلى صاحب المحل؛ إنه نموذج للتجامل».<sup>4</sup>

كانت هذه أهم الأفكار والمقولات التي جاء بها مالينوفسكي، والتي خلفت وراءها ردود فعل متباينة بين التأييد والمعارضة، وكان أهم ما وجّه لهذه الآراء من انتقادات ما يلي:-<sup>5</sup>

1- المصدر نفسه، ص 186، نقلاً عن: اللغة في المجتمع (لويس) ص 48.

2- علم اللغة مقدمة للقارئ العربي، محمود السعران، ط2، دار الفكر العربي، ص 310.

3- انظر: علم الدلالة، بالمر: ترجمة د.صبري إبراهيم السيد، ص 75.

4- دلالة السياق، ص 186.

5- انظر: علم الدلالة، بالمر، ص 75، 76 بتصرف.

- 1- اعتباره لغة القبائل البدائية متخلفة عن اللغات الأخرى، وهو ما لا يسلم له به؛ لأن صعوبات الترجمة التي أشار إليها مالمينوفاكي تنتج فقط عن الفروق بين اللغات، وليس عن حقيقة أن لغة ما أكثر بدائية من أخرى.
- 2- لا توفر نظرات ومقولات مالمينوفاكي الأساس لأي نظرية دلالية علمية.
- 3- لا تمكن نظريته من تناول السياق بشكل منظم كي يفيد معنى.

وبالرغم من هذه الانتقادات التي يمكن عدّها طبيعية؛ نظراً للجدة التي طبعت هذه الآراء، وعدم أخذ حظّها بعد من الدراسة والتعميد، فإنه يمكن القول: إن هذه الأفكار قد شكلت مهاداً نظرياً لمن جاء بعده، خاصة فيرث؛ إذ عمل على تطويرها والبناء عليها وتفاذي المؤاخذات التي أخذ هو بها.

**ترتبط نظرية السياق في الفكر اللغوي الغربي بالعالم اللغوي الإنجليزي «جون فيرث» لما له من أيادٍ بيضاء على هذه النظرية تأسيساً وتنظيراً وتطويراً.**

## 2 - نظرية السياق عند فيرث

ترتبط نظرية السياق في الفكر اللغوي الغربي بالعالم اللغوي الإنجليزي «جون فيرث» [J. Firth (1960-1980)]; لما له من أيادٍ بيضاء على هذه النظرية تأسيساً وتنظيراً وتطويراً.

وقد أسهمت مجموعة من العوامل في صياغة توجهات «فيرث» العلمية، ومنها: اهتمامه بالدراسات الشرقية، وتولّد هذا الاهتمام عن فترة كان قد قضاها يعمل في الهند، وهناك تأثر بنظريات اللغويين الهنود القدامى، ولا سيما فيما يتعلق بضرورة القيام بدراسة الفونيتيك بهدف تفهم اللغة بصورة أفضل. هذا من جهة، ومن جهة أخرى أسهمت أفكار الإنثروبولوجي البولندي مالمينوفاكي في صياغة توجهاته العلمية؛ إذ عمل على تطوير هذه الآراء والارتقاء بها إلى حدود صياغة نظرية متكاملة<sup>1</sup>.

1- انظر: الألسنية (علم اللغة الحديث) المبادئ والأعلام، ميشال زكريا، ط2، (المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع)، ص 281 - 282.



فما قصة هذه النظرية التي أكسبت صاحبها احتراماً في الأوساط العلمية، بفضل ما جاءت به من أفكار وطروحات تركت صدئاً طيباً عند المشتغلين ببيان المعنى؟

إن أهم الأفكار التي حرص فيرث على تسويقها من خلال هذه النظرية هو ما يسمى «بالوظيفة الاجتماعية للغة»، أي محاولة دراسة اللغة في إطارها الاجتماعي؛ إذ إنه «يصرُّ على دراسة اللغة كجزء من المسار الاجتماعي، أو كشكل من أشكال الحياة الإنسانية، وليس كإشارات، ويقوم بدراسة عناصرها انطلاقاً من دراسة علاقتها بالقضايا الاجتماعية؛ وذلك لأن دلالة اللغة تحدد من خلال استعمالها المتنوعة في المجتمع»<sup>1</sup>.

فمن بين وظائف اللغة عند فيرث: الوظيفة الاجتماعية، بل إن هذه الوظيفة هي أهم شيء بالنسبة للغة في نظره، وبسبب هذه النظرة يمكننا فهم التصور الذي جاء به فيرث للمعنى؛ «فقد كان يرى أن على عالم اللغة - إذا ما أراد أن يصل إلى المعنى الدقيق للحدث اللغوي أو الكلامي - أن يبدأ أولاً بوصف وتحليل الظواهر اللغوية المتصلة به، ومحاولة تعييدها وفقاً لخواصها ووظائفها في التركيب، وهذا المبدأ الأساسي هو محور منهج عام في دراسة اللغة عنده»<sup>2</sup>.

فالمعنى عند فيرث - فضلاً عن سياق الحال - يتشكل من مجموعة من الوظائف اللغوية المترابطة فيما بينها والمفوضي بعضها إلى بعض، وتضم هذه الوظائف اللغوية: الوظيفة الصوتية، ثم الصرفية (المورفولوجية)، والنحوية (التركيبية)، والمعجمية. ويشمل سياق الحال عناصر كثيرة تتصل بالمتكلم، والمخاطب، والظروف الملازمة، والبيئة.

وتطرح هذه النظرية منهجاً لدراسة اللغة بصفة عامة، ودراسة المعنى بصفة خاصة يقوم على ثلاثة أركان رئيسية هي<sup>3</sup>:

1- المصدر نفسه، ص 282.

2- الكلمة دراسة لغوية معجمية، حلمي خليل، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية 1995، ص 157.

3- انظر: - علم الدلالة: دراسة نظرية تطبيقية، فريد عوض حيدر.



أولاً: وجوب اعتماد كل تحليل لغوي على ما يسمى بالمقام أو سياق الحال «Contexte of Situation»، وسياق الحال أو الماكريات هو جملة العناصر المكونة للموقف الكلامي، هذه العناصر أو الظروف أو الملابسات هي:

- أ - الظواهر المتصلة بالمشاركين في الكلام والاستماع مع الاهتمام بشخصياتهم وتدرج تحت ذلك الأمور التالية:
  - الكلام الفعلي نفسه.
  - أعمال هؤلاء المشاركين في الكلام وسلوكهم.

إنَّ اللغة ظاهرة اجتماعية، وأن الكلمات لا تقل من الناحية العملية عن باقي أعمال الإنسان ونشاطاته التي نلاحظها في المقام، مثلها في ذلك مثل الإشارات والحركات الجسمية أو الضحك، وغيرها مما يصحب الكلام الإنساني.

- ب - الأشياء والموضوعات المناسبة المتصلة بالكلام والموقف.
- ج - أثر الكلام الفعلي في المشاركين كالاقتناع أو الألم أو الإغراء أو الضرر... إلخ.
- د - العوامل والظواهر الاجتماعية ذات العلاقة باللغة وبالسلوك اللغوي لمن يشارك في الموقف الكلامي كمكان الكلام وزمانه، وحالة الجوارح إن كان لها دخل، وكل ما يطرأ أثناء الكلام مما يتصل بالموقف الكلامي أيًا كانت درجة تعلقه به.

والملاحظ أن جميع هذه العناصر تبني على مسلّمة فيرث السابقة: أن اللغة ظاهرة اجتماعية، وأن الكلمات لا تقل من الناحية العملية عن باقي أعمال الإنسان ونشاطاته التي نلاحظها في المقام، مثلها في ذلك مثل الإشارات والحركات الجسمية أو الضحك، وغيرها مما يصحب الكلام الإنساني.

= - دراسة المعنى عند الأصوليين: طاهر سليمان حمودة، الإسكندرية، الدار الجامعية للطباعة والنشر والتوزيع، ص 214 - 217.

- علم اللغة: محمود السعران ص 338 - 341.



ثانياً: وجوب تحديد بيئة الكلام المدروس وصيغته؛ وذلك لأن من شأن هذا التحديد الوقاية من الخلط بين لغة وأخرى أو لهجة وأخرى، فيجب على الدارس أن يحدد البيئة الاجتماعية التي تحتضن اللغة المراد دراستها؛ ذلك أن هناك صلة وثيقة بين اللغة والثقافة المحيطة بها، وهو أمر مهم بالنسبة للفصل بين المستويات الكلامية كلفة المثقفين ولغة العوام، أو لغة الشعر ولغة النثر.

ثالثاً: وجوب النظر إلى الكلام اللغوي على مراحل؛ فالكلام اللغوي عند فيرث مكون من أحداث، وهذه الأحداث اللغوية معقدة ومركبة، وعليه يجب تحليلها على مراحل، هذه المراحل هي فروع علم اللغة، والنتائج التي تصل إليها هذه الفروع هي مجموع خواص الكلام المدروس، وهذه الفروع وثيقة الصلة فيما بينها، وغايتها إجلاء المعنى اللغوي، فالمعنى اللغوي - عنده - له وسائله الصوتية، ثم الصرفية (المورفولوجية)، والنحوية (التركيبية)، والمعجمية، وأخيراً الوظيفة الدلالية لسياق الحال.

وهكذا، فإن الوصول إلى معنى أي نص لغوي يستلزم المرور بالخطوات التالية<sup>1</sup>:

- 1- أن يحلل النص اللغوي على المستويات اللغوية المختلفة: الصوتية، والصرفية (المورفولوجية)، والنحوية (التركيبية)، والمعجمية.
- 2- أن تبين نوع الوظيفة من تَمَنُّ وإغراء واستفهام وتعجب، وغير ذلك.
- 3- أن يذكر الأثر الذي يتركه الكلام من اقتناع أو سخرية أو ضحك أو بكاء أو ألم... إلخ.

ويبدو من خلال هذه الآراء أن فيرث يحاول أن يقدم مفهوماً جديداً للمعنى، يقوم على مراعاة مجموعة من الارتباطات والعلاقات والسمات المميزة للغة التي تتشكل في موقف لغوي يحددها السياق، وليس شيئاً في الذهن، أو علاقة متبادلة بين اللفظ وصورة الشيء الذهنية.

1- انظر: - علم اللغة محمود السعران، ص 340 - 341.

- جدل اللفظ والمعنى، دراسة في دلالة الكلمة العربية، د. أسعد مهدي عرار، ط1، عمان، دار وائل للطباعة والنشر، ص 40.

هذا ويقسم فيرث السياق إلى قسمين رئيسين هما: السياق اللغوي وسياق الحال.

**السياق اللغوي:** (Linguistic Context) ويقصد به مجموعة العناصر المقالية أو اللفظية للحدث اللغوي وتشمل ما يلي:

- الوحدات الصوتية (الفونيمات) والوحدات الصرفية (المورفيمات) والكلمات والجمل، والعبارات والنص، والكتاب كله.
- ترتيب الوحدات داخل الجمل، ومجموعة العلاقات التي تربطها بعضها ببعض.

**إنَّ السياق اللغوي هو حصيلة دراسة ما بات يعرف «بمستويات الدرس اللغوي»؛ إذ إن دراسة هذه المستويات في ترابط وتسلسل فيما بينها، حتى يتضح دور كل عنصر منها، وقيّمته في بيان المعنى هو الذي يعطينا السياق اللغوي.**

- طريقة نطق هذه الجمل، وظواهر التطريز الصوتي (Prosodies) المصاحبة لهذا النطق، ومنها النبر والتنغيم والفواصل الصوتية<sup>1</sup>.

وبعبارة أخرى يمكن القول: إن السياق اللغوي هو حصيلة دراسة ما بات يعرف «بمستويات الدرس اللغوي»؛ إذ إن دراسة هذه المستويات في ترابط وتسلسل فيما بينها، حتى يتضح دور كل عنصر منها، وقيّمته في بيان المعنى هو الذي يعطينا السياق اللغوي.

إلا أنه بتحصيلنا للمعنى اللغوي نكون قد قطعنا نصف المسافة فقط، فيلزمنا دراسة سياق الحال حتى تكتمل الصورة، ويتعين المراد.

**سياق الحال:** Context of Situation ويشمل مجموعة العناصر الحالية أو المقامية، ومن أهمها ما يلي<sup>2</sup>:

- 1- شخصية المتكلم، وثقافته، وحالته النفسية، وكذلك السامع أو السامعون، والشخص الحاضرون أثناء الكلام أو الذين لهم علاقة به.

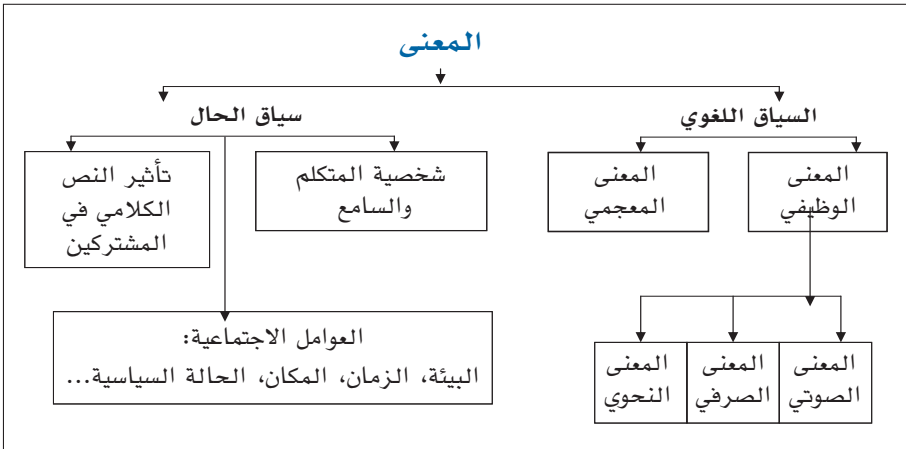
1- البحث الدلالي عند الأصوليين، حبلى، ص 31 نقلاً عن Paper in Linguistics p.26 .

2- البحث الدلالي عند الأصوليين، محمد يوسف حبلى ص 32.



- 2- الأشياء أو الموضوعات المتصلة بالكلام.
- 3- أثر الكلام على المشاركين كالانفعال، والألم أو الإغراء أو الضحك...
- 4- الظروف المحيطة بالكلام كالبيئة والزمن والأحداث المعاصرة له: سياسية، اقتصادية، اجتماعية، دينية... التي تتصل بالموقف اللغوي.
- كانت هذه عناصر السياق بنوعيه: «المقالي والمقامي» عند فيرث، نصل إلى صواب المعنى وصحيحه فقط بمراعاة هذه العناصر مجتمعة، دون الاقتصار على بعضها دون بعض. وبهذه الطريقة يمكن القول: إن العمل اللغوي والدلالي منه على وجه الخصوص، لم يعد يحتفي كثيراً بما يشيع في المدارس الأخرى من مصطلحات مثل الدال والمدلول، والفكرة، والمحتوى...<sup>1</sup> وأضحى المعنى الدلالي عند فيرث علاقة هذه المستويات (الوظائف) فيما بينها لغوياً؛ أي حاصل معاني البنى على المستويات اللغوية المختلفة بالتساوي مضافاً إليها سياق الموقف بعناصره السابقة.<sup>2</sup>

هذا ويمكن إبراز أهم العناصر المشكلة لنظرية فيرث وفق الخطاظة التالية:<sup>3</sup>



- 1- دلالة السياق، ردة الله الطلحي، 196 نقلاً عن هليج: Helbig, Geschichte, S112 .
- 2- المصدر نفسه، ص 197.
- 3- جدل اللفظ والمعنى: أسعد عرار، ص 42 بتصرف.

وحتى تتضح ملامح السياق، وتبين عناصره اللغوية والحالية بشكل أفضل، نحاول تمثل سياق معين، نطبق عليه هذه الفكرة، لننظر أهمية العناصر السابقة ودور كل واحد منها، والأثر الذي يترتب عن غياب إحداها.

#### IV - نموذج توضيحي: جملة ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾

فقد تشكل سياق لغوي ملفوظ لهذه الجملة يتمثل في الوحدات الصوتية التي تركبت منها كلمة (اعملوا)، ثم (ما)، ثم الوحدات الصوتية التي تركبت منها كلمة (شئتم)، وكل وحدة من هذه الوحدات - الصامت منها والمتحرك -

له دور في تحديد بعض المعنى، بحيث لو استبدلنا بهذه الوحدات الصوتية وحدات أخرى غيرها لتغير المعنى بشكل تلقائي؛ مثل قولك: (اعملوا ما شئتم)، (اعبدوا ما شئتم)، (اعملوا متى شئتم)...

وفي قولك: (اعملوا ما شئتم) تجد هذه الكلمة مركبة من مورفيمين أو وحدتين صرفيتين هما: (اعمل) + (و) الجماعة، وهو معنى يمكن أن يتغير إذا قلنا: (اعملا) أو (اعملن) أو (اعلمي)...

كما أن كلمة (اعملوا) لها معنى معجمي، يختلف عن (العبوا) أو (اعلموا) أو (انظروا)... وكذلك الشأن مع (ما) و(شئتم).

وجملة (اعملوا ما شئتم) تركيب فعلي يفيد معنى معيناً، يختلف عن قولنا مثلاً: (ما شئتم اعملوا). كما تشكل طريقة نطق هذه الجملة، والتلويحات الصوتية أو التنغيمية التي تصاحبها، سمات دلالية مهمة، يمكن أن يكون لها دور مهم في اكتشاف المعنى وتحديدده.

فإذا جمعنا هذه الأبعاد المتفرقة التي تشكلت من العناصر المقالية المكونة لهذه الجملة، تحصل لدينا ما يمكن أن نسميه المعنى اللغوي أو «المعنى الحرفي»، فيبقى - لكي تتضح صورة المعنى وتجلي جميع مفرداته -

أضحى المعنى الدلالي عند فيرث علاقة هذه المستويات (الوظائف) فيما بينها لغوياً؛ أي حاصل معاني البنى على المستويات اللغوية المختلفة بالتساوي مضافاً إليها سياق الموقف بعناصره السابقة.



أن نحاول اكتشاف الملابس الخارجية والظروف التي قيلت فيها هذه الجملة؛ أي محاولة تقصي سياق الحال أو «السياق المقامي».

لا شك أن «السياقات الخارجية» أو المقامات التي يمكن أن تقال فيها هذه العبارة هي كثيرة ومتعددة ومختلفة باختلاف العناصر المكونة لتلك المقامات، لذلك سأكتفي بمقامين اثنين قيلت فيهما هذه العبارة، واختلف فيهما المعنى من الضد إلى الضد.

فقد وردت هذه الجملة في كلام الباري وَعَلَىٰ في قوله تعالى: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [فصلت: 40]. وهو تهديد من الحق وَعَلَىٰ للذين يلحدون في آياته، قال أبو حيان: «وعيد وتهديد بصيغة الأمر»<sup>1</sup>. كما وردت هذه الجملة بالصيغة نفسها في حديث رسول الله ﷺ، في شأن من حضر بداراً: «اعملوا ما شئتم»<sup>2</sup> إلا أنها في هذا المقام تنصرف إلى الرحمة والتلطف... فاختلاف سياق الظروف والملابسات في كل من المقامين، اقتضى انصراف الدلالة إلى التهديد والوعيد في المقام الأول، وإلى الرحمة والحنان في المقام الثاني، بالرغم من أن صيغة الجملة لم تتغير.

1- تفسير البحر المحيط، لأبي حيان الأندلسي، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، وعلي محمد عوض وآخرون، ط1، (بيروت، دار الكتب العلمية 1413هـ/1993م، 478/7).

2- صحيح البخاري، تحقيق: محب الدين الخطيب، ط1، القاهرة، المكتبة السلفية، 1400هـ، كتاب المغازي، باب فضل من شهد بداراً، حديث رقم: 3983، ج 3، ص 88.